باب الجدل والاستدلال

(آراء الناس في مكاتبتنا مع لورد كرومر)

من الناس من يكتب ليرضي الناس فهو يتحرى رضاهم بالحق و بالباطل فلا الحق مقصود له في ذاته ولا الباطل مطلوب له لذاته وانما يكتب لهوى خاص هو كل ما يقصد . ومنهم من يتحرى الحق رضي الناس أم لم يرضوا وافق أهواءهم أم لم يوافقها . ولا يتبع الناس الهوى في شيء كما يتبعونه في الكلام عن الحكام والرؤساء ورجال السياسة . وانا نرى أهل الأهواء قد يعدون الشيء الواحد اذا صدر عن زيد نافعا واذا صدر عن عمرو ضارا ويقول فلان قوله فيعدونه ايمانا واصلاحا ويقوله آخر فيعدونه كفرا وافسادا .

منذ سنتين وأشهر نشرت عدة مقالات في بعض جرائد القاهرة في ذم الفلسفة والتعريض بمن زعموا انه يريد ادخالها في علوم الأزهر (يعنون الاستاذ الامام رحمه الله) وقالوا ان الأزهر مدرسة دينية محضة لا يجوز تعليم شيء فيها غير الدين وفي هذا العام أمر شيخ الجامع الأزهر بعض المشايخ بقراءة فلسفة اليونان فيه فطفق بعضهم يقرأ الاشارات لابن سينا وبعضهم يقرأ كتبا أخرى في ذلك ولم يكتب أحد بل لم يقل أحد شيئا!! فلماذا كان ورم ادخال الفلسفة في الأزهر منكرا دافعا الى ذلك الانتقاد الشديد وصار تعليم الفلسفة بالفعل الآن معروفا لا ينتقده أحد؟؟

وقد نشرت احدى جرائد المسلمين منذ سنتين مقالا لأحد الامراء عبث فيه ببعض أصول الدين وعقائده . وكتبت جريدة أخرى لهم ان المحكم يقتل القاتل من بقايا الهمجية ، بل استبدل المحكم القوانين بالشريعة ولم يقل المسلمون شيئا ولا حركوا ساكنا بل ظلوا يعدون هؤلاء المحكم من رؤساء الدول . وقد قال اللورد كرومر في تقريره الأخير عن حال مصر والسودان كلمة في الشريعة قام لها الناس وقعدوا لا لذاتها بل لأنها من اللورد كرومر . وقد أطال الرد والطعن كثير

من الكتاب على كلمة الرد من حيث هي كلمة ونتكلم بمضمونها فيها قالتها. ومما كتب في الرد على اللورد مقالة في الرق نشرت في اللواء معزوة الى حكيم من حكماء الاسلام ولكنه لا يعرف البديهي من قواعد الاسلام اذ زعم أن الزكاة المفروضة فيه تصرف بحكم القرآن الى الحكام والى سفراء الدول وقناصلهم وفي بناء الفنادق للسياح. ولو كتب مثل هذا الكلام في المقطم لقامت عليه وعلى كاتبها قيامة اللواء وغير اللواء وعدوا ذلك أعظم جناية على الاسلام

هكذا ينظر أكثر الناس الى من قال لا الى ما قال، ولا يعرفون الرجال بالحق بل يعرفون الحق بالرجال، كلا ان اتباعهم الهوى في الرجال يصرفهم عن معرفة الحق وعن طلبه فلا يقبلونه ممن لم يوافق أهواءهم ولكنهم يقبلون الباطل ممن فتنوا بهم، وصاروا موضع ثقتهم، وهذا من اكبر البلاء على الناس اذ لا ترتقي أمة منهم الا اذا كثر المستقلون فيها بالحكم على الناس وعلى الاقوال، الذين يطلبون الحق لذاته ويجعلونه هو الميزان لمعرفة الناس ومعرفة الاشياء

قال لورد كرومر قوله في الشريعة الاسلامية فقامت له جرائد المسلمين وقعدت، وأعولت وولولت، وذمت وقدحت، وارتأت واقترحت، ثم صدر المنار فكان خيرا منها دفاعا، وأشد للمخالف اقناعا، وزاد على ذلك أن وفق الى أخذ كتاب من اللورد نفسه يبرئ فيه الدين الاسلامي نفسه من النقد والطعن ويستدل على ذلك ويصرح بأن عبارة التقرير — التي فهم منها الطعن في الدين نفسه — لم تؤد مراده الذي بينه ووضحه بما كتبه الينا. فماذا قال الناس في ذلك؟

اختلفوا فيه كما هي عادتهم فاستحسنه فريق كل الاستحسان وشكر لنا سعينا وللورد فضله وانصافه وبالغ بعض افراد هذا الفريق في الاعجاب بذلك حتى قال لنا أحد المعاصرين وهو ممن لا يختلف اثنان في كمال استقلاله وجودة رأيه وسعة علمه: أخبرني هل سحرت اللورد بكتابك اليه وهو لا يعرفك ام استعنت عليه بوسائط أخرى حتى نجحت في أخذ هذا الجواب الذي لا يتصور أن يخدم الاسلام بمثله في هذا الباب؟ الخ ما قال

وذهب فريق آخر الى انه لا فضل للورد في جوابه وانما الفضل كله فيه

لصاحب المنار . وقد جرت بين أحد الباشوات من هذا الفريق وأحد المشايخ الوجهاء من الفريق الاول مراجعة ومحاورة بذلك في حفلة عرس في العاصمة وكان بعض الوجهاء فيها موافقا للباشا و بعضهم موافقا للشيخ

وذهب فريق ثالث الى أن صاحب المنار قد أخطأ فيما كتبه الى اللورد لانه لقنه الجواب في السؤال ، ورد عليهم بعض الناس بأن صاحب المنار قد أحسن في ذلك لأنه ورّطه اللورد حتى أجابه الى ما يريد من تبرئة الدين الذي هو الكتاب والسنة وهذا هو غرضه من الكتاب . ورد عليهم آخرون بأن ما استدل به اللورد في جوابه مؤيد بتقاريره فهو لم يستفد الجواب من السؤال وانما جاء به من عند نفسه كما هو مفهوم من استدلاله

وقال فريق آخر إن صاحب المنار قد أخطأ لأنه كان سبباً لهذا الكتاب الذي يميل القلوب الى اللورد حتى تراه أهلا للشكر والثناء ونحن لانحب أن نرى منه ما يحببه الينا بل نحب ان نرى منه ونسمع عنه ما يزيد بغضنا فيه وحنقنا عليه !!!

وصاح فريق آخر إن صاحب المنار لا يستحق على هذا العمل الا القدح والذم ، والسب والشتم ، والقدح والتشهير ، والتمثيل والتصوير ، لأنه دافع عن اللورد الذي هو عدو الوطن والوطنيين ، وخصم الاسلام والمسلمين ، ولو كان هؤلاء يقولون ما يعتقدون ، واذا ظهر لهم الحق يذعنون ، لوجدوا كثيرين يقولون لهم انكم مخطئون ، فان المنار ما دافع عن اللورد بل رد ما يفهم من كلامه بثلاث مقالات لم يسبقه أحد الى مثلها ثم توصل إلى استكتابه ما هو عين المصلحة للاسلام والمسلمين ، وان لم يوافق أهواء بعض المتحمسين من الوطنيين ، الذين يكرهون الحق اذا ظهر على لسان زيد ، و يقبلون من المصلحة اذا جاءت على يد عمرو ، وهم لا يتبعون الا شعور الكراهة والنفور ، ولا يصيخون الا لداعي الافراط والغرور ، وأكثرهم مقلدون لا يقولون أصحاب الصحف القائلون ،

أما أصحاب الصحف المصرية فأكثرها لم يقدر هذه المسألة قدرها على عنايتها دائما بأقل ما يؤثر عن الرجال العظام كلورد كرومر من قول وعمل حتى مالا شأن له في المصالح العامة كالرياضة والتمرينات الى الطعام أو الشاي . أما السبب

التي لأجله لم تحتل الجرائد بأمر يعد من أهم موضوعاتها وهو استدراك اللورد على عبارة في تقريره الرسمي في مسألة مهمة فهو أن جرائد الافرنج وعاقل شاكلتها من الجرائد العربية لا ترى من مصلحتها التنويه ولا مقتضى ملتها بالشهادة للدين الاسلامي أو تبرئته من مناهضة المدنية أو مخالفتها مهما ارتقت

وأما جرائد المسلمين التي كان ينتظر منها أن تنوه بذلك وتهتم به فقد اتفق أنه ظهر في وقت تخالف فيه بعض أصحابها المشهورين على اسقاط «حزب الشيخ محمد عبده» بالذم والتشهير، والقدح والتصوير، وقد افرطوا ما يظنون من نجاحهم في إيهام الجمهور بأنهم هم الذين كانوا سبب استقالة اللورد وتغيير انكلترا سياستها في مصر تغييراً مرضياً (كما يزعمون) ولهذا ترى همهم محصوراً في جعل حسنات ناظر المعارف (سعد باشا زغلول) سيئات وفي الطعن بعلومه ومعارفه واتقانه اللغة الفرنسية — هذا وهو انبغ رجال وطنهم المحبوب بالسنتهم وأقلامهم فكيف يعترفون مع هذا لصاحب المنار بأنه أحسن صنعاً وهو من حزب الشيخ محمد عبده المحكوم عليه بالاسقاط عندهم؟ أليس المعقول من أصحاب هذا الحكم أن يحولوا الأمر عن وجهه ويجعلوا الحسنة سيئة؟ بلى

على أن جريدة اللواء أظهرت الارتياب في هذه المكاتبة كأنها كرمت نفسها ان تعترف بصحتها ثم لا تقدرها قدرها وصعب عليها أن تعترف للورد أو لصاحب المنار بمزية فلم تر مخرجاً من ذلك الا باظهار الارتياب والشك فيما قيل ولكنها جزمت بتكذيب ما نقل عن الشيخ حسونه افتياتاً عليه — وجريدة المؤيد نقلت السؤال والجواب ونزلت من سمائها فقبلت الجواب على أنه تنازل من اللورد ورجوع عن قوله الأول . وهي على كونها لم تترك الاسم أو المدح الخفي في هذا كعادتها قد كرمت نفسها ان تمد الدفاع عن الاسلام دفاعاً عن اللورد فتركته الى من لا كرامة لهم في أنفسهم ولا في أنفس أحد من العقلاء الذين يعلمون ان ذلك لم يدفع عن اللورد ضراً ولم يجلب له نفعاً

وقد كتب الينا من القاهرة وغيرها في استحسان السؤال والجواب واستهجان خطة المشاغب فيه وقد اكتفينا بنشر كتاب لأحد اساتذة المدارس لأنه لم يسم فيه أحد وقد صرح بطلب نشره فليراجع في باب المراسلة